والصين . فالعلة الأولى هى الإضطراب والعلة الثانية هى الاضطهاد، وهذا هو موضع الخطأ فى تفسير إرادة الله كما رآها واعظ إسرائيل

إلا أن الكلام كما أسلفنا كلام يقال فى العظات العصرية لإتباع السامعين العصريين ، ودر خير من كل كلام لا ينظر قائله إلى الواقع ولا ينظر إلى التاريخ

* * *

قرأت هذين المثلين فى شهر رمضان

وشهر رمضان عندنا هو شهر العظات وشهر السهرات فى سماع القرآن والدروس

وقد سمعت بعضها وقرأت بعضها وذكرت بعضها مما كان يلقى فى السنوات الماضية

فيطيب لى أن أقول إنها تتقدم من المحاكاة إلى الابتكار ، وأنها تخرج من حفائر الموت إلى ميادين الحياة ، وأنها تخاطب الناس خطاب الإقناع بعد أن خاطبتهم طويلاً خطاب الإلزام والإرهاب ...

فإذا اطردت على هذه الوتيرة فسبيلها غداً (١) أن تشمل الآفاق الواسعة وتتعمق فى أغوار النفس الإنسانية و (٢) أن تربط بين موضوعاتها وكبريات الحوادث الحاضرة و (٣) أن تعمم الإقناع فى خطاب العقل البشرى فلا تقصره على من يؤمن بالقرآن والسنة والمسلمين ، بل تجعله مقنعاً خليقاً بالبحث والنظر فى رأى كل صاحب عقل وتفكير

وهل أضيف أمنية أخرى ؟

يقول أناس إن بائع الحرير لا يلزم أن يلبس من حريره ، وإن واصف الدواء لا يلزم أن يتناول من دوائه ، وإن الأب الذى يقدم لوليده الطعام لا يلزم أن يأكل من طعام الأطفال ، ولكن الواعظ لا يكون واعظاً إلا إذا عمل بما يأمر به الناس

ويقول آخرون : بل حكم الواعظ فى ذلك حكم بائع الحرير وواصف الدواء ومقدم الطعام لبنيه ، فليس بالواجب عليه أن يعمل بكل ما يقول ، وإنما الواجب عليه أن يهدى كلاً من سامعيه إلى ما يحسن به عمله وتصلح له هدايته

وأياً كان مقطع الرأى فى اختلاف الواجبات أو اتفاقها بين الناس فهناك واجب مشترك متفق عليه بين جميع الواعظين والعاملين : وهو الإيمان بالواجب والإيمان بالأمانة والإخلاص فى أدائه .

عباس محمود العقاد

جنـــاية أحمد أمين

على الأدب العربى

للدكتور زكى مبارك

— ١٩ —

رأينا فى المقال السالف كيف أخطأ الأستاذ أحمد أمين حين زعم أن الأدب العربى على اختلاف عصوره ليس فيه إلا شاعر واحد يهتم بتحليل المعانى

فهل نجّاه الله من الخطأ حين زعم أن الأدب العربى لم يعرف غير كاتب واحد يهتم باستقصاء الأغراض ؟

إن الله لطف بابن خلدون فشغل به قلب الدكتور طه حسين لتعلو منزلته فى نظر الأستاذ أحمد أمين ، فأغلب الظن أن أحمد أمين لم يكن عنده مانع من القول بأن الأدب العربى فى جميع العصور وفى جميع الأقطار لم يُخلق فيه كاتب يعرف كيف يشرّح المعانى والأغراض على نحو ما يصنع الكتاب فى هذه الأيام !

والحق أن بُعد الدكتور طه حسين عن مصر فى أيام الصيف عرّض الأستاذ أحمد أمين للمعاطب ، فلو أن الدكتور طه بقى فى مصر لكان من الجائز أن يعلن إعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون ، وعندئذ كان يصح للأستاذ أحمد أمين أن « يتفصل » فيقول إنه لا يعرف فى الأدب العربى غير كاتبين اثنين ؛ وكان من الجائز أيضاً أن يعلن الدكتور طه إعجابه بكاتب ثالث فيقول الأستاذ أحمد أمين إنه لا يعرف فى الأدب العربى غير ثلاثة من الكتّاب !

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول إنه لا يُعقَل ألا ينبغ فى الأدب العربى غير كاتب واحد فى ذلك الأمد الطويل الذى سيطر فيه على أقطار أسيوية وإفريقية وأوربية ؟

إن الدكتور طه لو قال هذه الكلمة — وهى حق — لسَرَت عدواها إلى روح الأستاذ أحمد أمين فاندفع يثنى على الأدب العربى

بما هو أهله ، ولكان من الممكن أن يصرح بأن الأدب العربي نبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ، ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل ، وقد يقدمهم إلى الجمهور في جلبة وضوضاء ، فكيف ننتظر أن يقول في الأدب العربي كلمة حق تشجع رجلاً مثلي على مجاهرة رجل يستبيح في الغض من أدب العرب مالا يباح ؟

لقد قضيت أعواماً طوالاً في محاربة الدكتور طه حسين ، واستطعت أن أعدّل مسالكه الأدبية بعض التعديل ، فهل أستطيع اليوم أن أخوّفه من عواقب السكوت على أغلاط بعض زملائه الأعزاء ؟

إن الدكتور طه هو المسئول عن أحمد أمين ، فهو الذي قال : « إن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهديناه إليها » ومعنى ذلك أن أحمد أمين لم يكن يعرف أنه أديب قبل أن يدله الدكتور طه على الكنز المدفون في صدره

كنت أعرف أن الدكتور طه على خطأ يوم ظن أنه استكشف « الأديب » المدفون في صدر أحمد أمين ، ولكني رأيت ألا أسارع إلى تخطئة الدكتور طه ، علماً بأن الأيام سترد الدكتور طه إلى الصواب ، فهل ردته إلى الصواب ؟

لقد حدثتكم من قبل أن أحمد أمين لم يكن أديباً ، وإنما كان موظفاً مخلصاً للوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون ، ثم قال له طه حسين : كن أديباً ، فكان

واليوم أحدثكم أني أخطأت ، والصواب أن أحمد أمين لم يكن أديباً ، وإنما قال له طه حسين : كن أديباً ، فلم يكن !

يا دكتور طه :

هل تصدق القول بأن اللغة العربية لم يكن فيها كاتب يحلل المعاني غير ابن خلدون ؟

أحب أن أساجلك الحديث ، فقد ضجرت من مساجلة أحمد أمين ما رأيك في الرعيل الأول من الكتّاب بعد عصر النبوة ؟

ما رأيك في الخطاب الذي وجّهه عبد الحميد بن يحيى إلى الكتاب ؟

ألا تراه غاية في تحليل المعاني وتشريح الأغراض ؟

وما رأيك في طريقة عبد الله بن المقفع وهو ينثر الحكم أو يكتب العهود ؟

إن كتاب كليلة ودمنة هندي الأصل ، فليس لابن المقفع غير الترجمة والتهذيب ، ولست من القائلين بأن كتاب كليلة ودمنة من إنشاء ابن المقفع ، ولكن ما رأيك في مقدمة ذلك الكتاب ، وهي بالتأكيد من إنشاء ابن المقفع ؟

أليست تلك المقدمة شاهداً على أن ابن المقفع يجيد الاستيعاب والاستقصاء ؟

وما رأيك في الكتاب الذين عرفتهم اللغة العربية بعد ذلك ؟

هل يستطيع إنسان أن يقدم ابن خلدون على الجاحظ إلا وهو محروم من نعمة الفهم والذوق ؟

إن الجاحظ كاد يستوعب جميع المعارف في عصره ، وكاد يُنطق جميع الأحياء والأموات بما عرفوا وأحسّوا من دقائق الأشياء . والذي يقرأ رسائل الجاحظ ومؤلفاته يشهد المعارك والمصاولات بين أصحاب المذاهب والآراء ، ويرى كيف تصطرع الطبائع والغرائز والخصال

فهل يجوز القول بأن اللغة التي عرفت أدب الجاحظ ليس فيها كاتب غير ابن خلدون ؟

وما رأيك في ابن قتيبة ؟

هل تذكر مقدمة كتابه « أدب الكاتب » ؟

إن « أدب الكاتب » هو في الأغلب دراسات لغوية وصرفية

ولكن ما رأيك في مقدمة ذلك الكتاب ؟

أليست غاية في التحليل والتشريح ؟

وقبل الجاحظ وابن قتيبة عرف الأدب العربي « مشاورات الهدى لأهل بيته » وأذكر أنك حاورتني في صحة هذه المشاورات وصح عندك أنها من الأدب المنحول ، وكانت حجتك أنها لم تذكر

فى غير كتاب العقد الفريد . وقد ضاق وقتى عن تعقب المصادر التى وردت فيها إشارة إلى تلك المحاورات ، فهل تظن أنها من بعض ما اخترع كتاب الأندلس ؟

المهم ، يا سيدى الدكتور ، أن نتفق على أنها سبقت القرن الرابع ، ولا يهمنا بعد ذلك أن تكون مشرقية أو مغربية ، كما لا يهمنا أن تكون من نتاج القرن الثانى أو الثالث ، فما يعنينا فى هذا المقام إلا أن نتخذها شاهداً على أن من كتّاب العرب من أجادوا التحليل والتشريح قبل ابن خلدون بأجيال طوال

ومن المؤكد أن مشاورات المهدى لأهل بيته ليست أول وآخر ما عرف العرب من هذا الطراز ، فلها أشباه كثيرة منها « حديث السقيفة » الذى قصه علينا التوحيدى والذى نقده ابن أبى الحديد

ولولا خوف الفتنة لأشرت إلى قصة دينية كثر فيها الحوار والتمثيل ، وهى من الشواهد على أن العرب تنبهوا من وقت مبكر إلى تحليل المعانى وتشريح الأغراض

وما رأيك فى أبى حيان التوحيدى ؟

ألا ترى أن أعماله فى القرن الرابع تذكّر بأعمال الجاحظ فى القرن الثالث ؟

كان الجاحظ يُنطق العلماء والفقهاء والأدباء ، وكذلك كان التوحيدى يُنطق من عاصروه بألوان كثيرة من صور الفكر والبيان

ومن المؤكد أن التوحيدى أكتب من ابن خلدون وأسبق إلى تشريح الآراء والأهواء

ومن المؤكد أيضاً أن التوحيدى لا يقل عن أعظم كاتب عرفته اللغات الأجنبية ، وشمائله فى الأسمار تذكّر بشمائل أناطول فرانس

وهل يذكر الدكتور رسالة الطير والحيوان بين رسائل إخوان الصفاء ؟

لقد دلنا ابن أبى الحديد على واضع « حديث السقيفة » فمتى نعرف الكاتب المجهول الذى وضع « مشاورات المهدى لأهل بيته » ؟ ومتى نعرف الكاتب المجهول الذى وضع « رسالة الطير والحيوان » ؟

قد نتعزى حين نيأس من معرفة المهندس الذى وضع تصميم الأهرام ، والمهندس الذى وضع تصميم إيوان كسرى والمهندس الذى وضع تصميم قصر الحمراء ، ولكنا لن نتعزى أبداً عن اليأس من معرفة الكاتب الذى وضع « رسالة الطير والحيوان » لأنه عندنا أعظم كاتب عرفته الآداب العالمية بعد أفلاطون

هل يذكر الدكتور ماقال يوم لقيته فى جريدة كوكب الشرق؟

لقد صارحنى الدكتور طه حسين بأن الفصل الذى حلّت به رسالة الطير والحيوان فى كتاب النثر الفنى غير كاف ، وقد أجبت بأنه فصل من كتاب ، وتحليل هذه الرسالة يحتاج إلى كتاب خاص

فكيف يقال إن اللغة العربية لم ينبغ فيها كاتب غير ابن خلدون وفيها « إخوان الصفاء » الذين سجلوا معارف زمانهم أعظم تسجيل ؟

لقد أشرت من قبل إلى الميزة الخُلُقية التى امتاز بها أولئك القوم ، وهى نكران الذات ، وإلا فمن الذى يصدّق من أهل عصرنا أن جماعة من أهل البصرة أو غير أهل البصرة يخفون هويّاتهم عن أعين التاريخ مع تلك القدرة الباهرة على تشريح الحقائق والأباطيل ؟

وما رأى الدكتور فى ابن شُهيد صاحب «التوابع والزوابع»؟

ألا يسمح لهذا الكاتب المبدع بأن يضاف إلى من يجيدون تحليل المعانى واستقصاء الأغراض ؟

إن ابن شهيد فى تلك الرسالة قارع المعانى الصعبة مقارعة الفحول ، ودخل فى شعاب لا يهتدى إلى مسالكها غير المزوّدين بأضواء البصائر والقلوب ، فكيف يُجهَل ويعرف ابن خلدون؟!

وما رأيك فى التنوخى صاحب « نشوار المحاضرة » ؟

ألا يذكّرك هذا الكاتب بكتّاب « الصور » من أقطاب الفرنسيس والانجليز والألمان ؟

لو كان التنوخي في أمة غير الأمة التي طبع فيها ديوان ابن خفاجة مرة واحدة في مدى أربعين سنة لجاز أن يخطر في بال الذي قال إن اللغة العربية لم تعرف كاتباً غير ابن خلدون !

وما رأيك في ابن مسكويه صاحب « تجارب الأمم » ؟

ألم يهتد ابن مسكويه إلى فلسفة التاريخ قبل ابن خلدون بأزمان؟

وما رأيك في الجرجاني صاحب « دلائل الإعجاز » ؟

هل ترضى أن توازن بين الجرجاني وبين لانسون ؟

إن الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز أبرع وأعظم من لانسون في كتابه L'Art d'écrire ولكن لانسون وجد رجالاً يعرفون قيمته الأدبية ، أما الجرجاني فله أخلاف ينسونه ويذكرون ابن خلدون !

وهل يمكن لرجل فيه بقية من الفهم والعقل أن يقارن العظمة الفكرية عند أمثال عبد القاهر الجرجاني ؟ ومن قبل الجرجاني عبد القاهر كان أستاذه أبو الحسن الجرجاني الذي فصّل ما بين المتنبي وخصومه أعظم تفصيل ، والذي أدخل في الأحكام الأدبية روحاً من عدل القضاء .

ومن قبل هؤلاء نشأ أحمد بن يوسف المصري الذي برع في تسجيل ما عرف عن معاصريه من محاسن وعيوب ، والذي وصل إلى الغاية في شرح أهواء النفوس

وهل ترى أن يقف الأدب عند الرسائل والمؤلفات التي غلبت عليها الصفة الاصطلاحية ؟

إن ميدان الأدب أوسع من ذلك ، فإليه تضاف أعمال المؤلفين في التصوف والأخلاق

إن صح هذا — وهو صحيح — فهل أستطيع أن أعرف رأيك في الغزالي ؟

أنا أعتقد أن الغزالي من فحول الكتّاب في اللغة العربية ، وأومن بأنه من المبتكرين في تحليل النوازع النفسية والقلبية ، وفي كتاب « الإحياء » فصول تشهد بأنه من أئمة الفكر والبيان

إقرأ — إن شئت — بعض ما كتب في الرياء تجده أتى بالأعاجيب في التنبيه على المجهول من سرائر النفوس ، وتعرف — وأنت تعرف — أنه في بابه أعمق من ابن خلدون وأقدر على التحليل والتشريح

قلت في محادثة قريبة بأنه لا يسرك أن ترانى أعتدي على الناس.

لقد ذهب الناس ، يا سيدي الدكتور !

أليس من المحزن أن يحتاج الأدب العربي إلى من يحميه من غطرسة بعض الأساتذة بكلية الآداب ؟

إن الأستاذ الذي لم يعرف في اللغة العربية كاتباً غير ابن خلدون لم يطلع أبداً على كتاب الفتوحات المكية ، فلو أنه كان اطلع على ذلك الكتاب لعرف أن عندنا كاتباً فحلاً هو ابن عربي الذي طوف بآفاق يجهلها أكثر الأدباء في هذا الجيل

وهو أيضاً لم يطلع على مؤلفات الشعراني الذي صور المجتمع المصري في القرن العاشر تصويراً نعجز عن مثله اليوم ، وأكاد أجزم بأن الصحف المصرية على اختلاف ألوانها ونزعاتها لا تعطي من صور مصر في العصر الحاضر ما أعطته مؤلفات الشعراني من صور مصر في القرن العاشر

وما كان الغزالي ولا ابن عربي ولا الشعراني إلا تلاميذ لأساتذة مجهولين وضعوا الأساس لحياة الفكر والتأليف في مختلف الأقطار العربية والإسلامية

هل تذكر المقريزي ، يا دكتور ؟

أنظر خطط المقريزي ، وتذكر العصر الذي عاش فيه المؤلف ثم وزان بينه وبين أي باحث من نوعه عاش في الأقطار الأوربية ، فإن فعلت فسترى أن أسلافنا كانوا من أئمة الابتكار والابتداع

فبأي حق يقال إن اللغة العربية لم ينبغ فيها كاتب غير ابن خلدون ؟

إن ابن خلدون ممتاز في الترتيب والتبويب ، وتلك هي الصفة

التي يعنيها أحمد أمين ، فأين هو من القلقشندى الذى بوّب « صبح الأعشى » تبويباً معدوم النظير ؟

وأين هو من السخاوى الذى صوّر القرن التاسع كأنك تراه ؟

وأين هو من الحركات العقلية الممثّلة فى ذخائر التفكير العربى والإسلامى ؟

الأدب ، يا دكتور ، له فنون تتجاوز ما أسلفنا من الفنون ، فأين صاحبك من الكتّاب الذين شغلوا أنفسهم بتشريح الدقائق النحوية والصرفية ؟

إن سيبويه ألف « الكتاب » فى القرن الثامن للميلاد ، فهل تعرف أن الأقطار الأوربية كان فيها مؤلف يشرّح أصول النحو والصرف كما صنع سيبويه فى ذلك العهد ؟

وهل يمكن أن يقال إن ابن خلدون كان فى التشريحات السياسية والاجتماعية أعمق من سيبويه فى التشريحات النحوية والصرفية ؟

وهل يمكن القول بأن جوهر العقل عند سيبويه أقل قيمة من جوهر العقل عند ابن خلدون ؟

إن الأستاذ أحمد أمين لا يرى غير ظواهر الأشياء ، ولو كان عميق الفكر لعرف أن رجلاً مثل ابن هشام الأنصارى خليق بأن يوضع فى أول صف من صفوف الباحثين الذين يجيدون تشريح المعانى ، فهذا الرجل عرض مسائل النحو فى صور مختلفات ، وبذل فى ذلك جهداً يشهد بأنه فى غاية من سمو الفهم والعقل ، وقد استطاع أن يجعل القاهرة فى صف البصرة والكوفة وبغداد ، ومجموعة المحاولات التى بذلها فى تكييف المعضلات النحوية والصرفية أقوى من مجموعة المحاولات التى بذلها ابن خلدون فى تكييف السياسة والاجتماع

إن فقهاء الشرع الإسلامى كان فيهم فحول من الوجهة الأدبية ، ولكن أين من يدرك أن البويطى صاحب كتاب الأم كان من أفطاب البيان ؟

* * *

أين من يصدق أن البويطى عرض الخلاف بين الشافعية والحنفية عرضاً هو الغاية فى حسن التعبير ، ودقة الوصف ، وسداد الأداء ؟

ومع ذلك نجد من يقول بأن اللغة العربية لا تعرف كاتباً غير ابن خلدون !

* * *

أما بعد فما الذى بقى لأحمد أمين وقد مزقنا أوهامه كلّ ممزّق ؟

بقى أن نبين أن أغلاطه ليست أغلاط الرجل المجتهد — والمجتهد أجره حين يخطىء وأجران حين يصيب — وإنما أغلاطه مسروقة سرقة حرفية من بعض أدباء هذا الجيل

فكيف سرق أحمد أمين تلك الأغلاط ؟ وكيف خفيت سرقاته على الناس ؟

سنكشف تلك السرقات فى مقال أو مقالين ، ثم نتركه فى سلام ليتذوق البقية من أطايب رمضان ، إن لم يجدّ ما يوجب أن يفطر يوم العيد على حديث ذى شجون

زكى مبارك